ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

ملاحظات حول السياسة الوحدوية للسلطان أبي الحسن المَريني

(٧٣١ – ٧٤٩هـ/ ١٣٣١ – ١٣٤٨م)

د. سلوى الزاهري

أستاذة التعليم العالي مساعدة

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين- طنجة تطوان – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تُعَدّ التجربة الوحدوية لبلاد المغرب التي رأت النور على عهد السلطان أبي الحسن المريني تجربة فريدة من نوعها، بالمقارنة مع تلك التي دشنها سلاطين مغاربة قبله، ومختلفة عن تلك التي طبقها الموحدون. فهي تجسد هيمنة أكثر انفتاحا نحو الانصهار، ليست عسكرية بتاتًا، ولا عصبوية ضيقة. ذلك أن حملة السلطان المريني ضد بلاد الزيانيين وبلاد الحفصيين لم تكن مجرد حملة عسكرية، وإنما كانت حملة دينية فقهية شارك فيها أشهر علماء المالكية في المغربين الأوسط والأقصى في نفس الوقت، بل نجح السلطان المريني في استقطاب جزء من الرأي العام المغاربي لصالحه، بما في ذلك قسم هام من المتصوفة، قبل أن يبدأ حملته نحو المناطق الشرقية من بلاد المغرب. بيد أن الفشل كان مصير هذه التجربة الوحدوية الفريدة في تاريخ المغرب الكبير، وقد خسر أبو الحسن في هذه الحملة سمعته وعرشه والساحل المغاربي، حينما تعرض لخيانة أهله، ولهزيمة منكرة على يد عدوه: عرب إفريقية، قرب القيروان سنة (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م).

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٧ يوليو ٢٠١٤

تاريخ قبول النشر: ١٣ أكتوبر ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الإدارة المرينية، المغرب المريني، أبي الحسن المريني، الدولة الموحدية، أرض الأندلس

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سلوى الزاهري. "ملاحظات حول السياسة الوحدوية للسلطان أبي الحسن المريني (٧٣١ – ٧٤٩هـ/ ١٣٣١ – ١٣٤٨م)".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون: سبتمبر ٢٠١٥. ص ١١٧ – ١٢٥.

مُقَدِّمَةْ

يمثل عهد السلطان أبي الحسن علي المريني - الذي وصل إلى الحكم في ذي الحجة (٧٣١ هـ/ شتنبر ١٣٣١م) - بداية مرحلة جديدة من حياة الدولة المرينية، ذلك أنه بدأ منذ توليته مقاليد الحكم يخطط لسياسة قوامها التوسع والقضاء على أي خطر يهدد الدولة، وبالتالي كانت له رغبة – كسابقيه من السلاطين المرينيين- في تحقيق وحدة بلاد المغرب، وإعادة تكوين إمبراطورية الموحدين، تحت لواء العصبية الزناتية؛ سواء من حيث اتساع نفوذها أو من حيث عظمة خلفائها، وكذلك من حيث قوتها العسكرية والاقتصادية. من هذه الزاوية يمكن اعتبار تجربة أبي الحسن الوحدوية تجربة فريدة من نوعها في التاريخ المغربي. فقد وصلت عسكريًا إلى الحدود الشرقية لإفريقية، ونجحت دبلوماسيًا في كسب الرأي العام للأمة الإسلامية، والظهور بمظهر حامي الإسلام في منطقة الغرب الإسلامي.[١]

وقبل أن نفصل القول في هذه المعطيات، لعله من المناسب التذكير بأن الطابع العام الذي ميز الحياة السياسية ببلاد المغرب في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، هو الفوضى وعدم الاستقرار، وما يتبع ذلك من تدهور في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. بل إن التراجع والانحطاط هي أهم سمات العالم الإسلامي قاطبة خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. فقد كان هذا القرن قرن تفكك الوحدات السياسية الكبرى التي حملت مشعل الحضارة الإسلامية في المغرب والمشرق. فالدولة العباسية أصبحت أثرًا بعد عين، والإمبراطورية الموحدية بدورها تلاشت واضمحلت، والحروب بين الدويلات والإمارات المنبثقة عنها كانت لا تهدأ إلا لتشتد، والضغط المسيحي يستأصل

الوجود الإسلامي في أهم الحواضر الأندلسية. وفضلاً عن هذا وذاك، كان القرن قرن مجاعات وأوبئة، مع انعكاساتها السلبية على مختلف الميادين.

وبهذا الصدد لا بأس من إيراد نص بليغ من مقدمة ابن خلدون، يبرز فيه، بقتامة منقطعة النظير، أهم معالم القرن الثامن في بلاد المغرب. يقول صاحب "المقدمة": "وأما لهذا العهد، وهو آخر المائة الثامنة، فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة، واعتاض عن أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان، وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم. هذا إلى ما نزل بالعمران شرقًا وغربًا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرًا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلها وفل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن، وكأني بالمشرق قد نزل به ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة".[٢]

أولاً: الصراع المريني ـ الزياني على زعامة بلاد المغرب

خلف تفكك الدولة الموحدية - التي كانت قد تمكنت من بسط سلطتها على بلاد المغرب الإسلامي وجزء من الأندلس- ثلاث وحدات سياسية وهي: الدولة الحفصية (إفريقية) والدولة الزيانية (المغرب الأوسط) والدولة المرينية (المغرب الأقصى). وحاول الحفصيون والمرينيون، عبثًا، إحياء وحدة الإمبراطورية الموحدية بعد انهيارها، طارحين أنفسهم ورثة شرعيين للحركة الموحدية ولمشروع المهدي ابن تومرت. ولم تقنع أي دولة بالمناطق التي تأسست عليها، بل حاولت ضمّ بقية التركة الموحدية، إما بادعاء تمثيل استمرارية للدولة الموحدية (الشرعية الموحدية)، كما هو الأمر بالنسبة للدولة الحفصيّة، أو رغبة في التسلط والزعامة على الملك وعرش زناتة، كما هو الحال بالنسبة للدولتين المرينية والزيانية.

وعلى الرغم من أن هذا الصراع لم يغيّر الخريطة الجيو-سياسية للمنطقة جذريًا، ولم تتمكن أي دولة من فرض سيطرتها المطلقة والمستمرة على بقية الدول، لأن "الظروف العامة لم تكن مواتية"[٣]، أو بسبب توازن القوى[٤]، إلا أن هذا الصراع خلّف حالة من عدم الاستقرار السياسي والأمني في منطقة المغرب الإسلامي برمتها، وأهدر طاقات كبيرة، في وقت كان العالم الأوربي يشهد تحولات سوف تكون لها انعكاسات خطيرة على مستوى توازن القوى المسيحية والإسلامية، وكذا بين ضفتيْ البحر الأبيض المتوسط، الشمالية والجنوبية.[٥] وكانت الدولة الزيانية (العبد-الوادية) أكثر تأثرًا بالصراع بين القوى المغاربية، وأكثر عرضة له، بسبب موقعها الجغرافي الوسطي بين الدولتين الحفصية والمرينية، وبالتالي تعرضت إلى ضغط مستمر من هاتين الدولتين، منفصلة أحيانًا ومتحدة أحيانًا أخرى.[٦]

أما الصراع المريني- الزياني، فكان أشد وأنكى، ودار على اختلاف بواعثه المعلنة حول رياسة زناتة، وملك المناطق التي تنتشر بها هذه القبيلة البربرية الكبيرة[٧]. ومما أجج ذلك الصراع تجاور الحيين، وعدم تكن أحدهما من فرض سيطرته المطلقة على الآخر. وبهذا الصدد يؤكد الدكتور محمد القبلي أن "القرن الرابع عشر يمتاز على مستوى المغرب الكبير بتطاحن دائم على جميع المستويات بين فاس وتلمسان"[٨]. إذ إن الحملات المرينية الموجهة ضد دولة بني عبد الواد لم تنقطع طوال القرن الثامن الهجري، حتى عدُّ هذا الأخير قرن الحروب بين الدولتين[٩]. ومن الواضح أن هذه الصراعات كان محركها الأساسي هو رغبة المرينيين في انتزاع زعامة المغرب الإسلامي من يد الحفصيين بعد وفاة المستنصر الحفصي، وظهور بوادر الضعف والانقسام بتونس وتلمسان. فقد سير المرينيون أكثر من أربعة عشر حملة ضد تلمسان، ابتداءً من سنة (٦٧١هـ/ ١٢٧٢م)، وانتهاءً بحملة سيرها أحد الوطاسيين سنة (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)، وهي آخر حملة قبل نهاية الدولة المرينية[١٠]. يتعلق الأمر إذا بمجهود كبير، صرف في حروب مكلفة، لم تسفر في مجموعها سوى عن عشرين سنة من السيطرة المرينية الفعلية على عاصمة الزيانيين طيلة قرنين من عمر الدولة المرينية.[١١]

ولا بد من التذكير بأن أولى المحاولات التي سيرها المرينيون لاقتحام تلمسان قد تمت على يد السلطان أبي يوسف يعقوب (٦٥٦ -٦٨٥ هـ) الذي قام بمجهودات خارج المغرب الأقصى بمجرد استيلائه على مراكش سنة ٦٦٨هـ. وتخبرنا المصادر أن هذه المحاولة كانت بسبب عرقلة يغمراسن بن زيان لتحركات أبي يوسف في بلاد المغرب. وعلى هذا الأساس تقدم أبو يوسف بجيوشه إلى تلمسان لحصارها. واقتصر الأمر على عمليات تخريبية، وفشلت هذه المحاولة، إذ عاد أبو يوسف إلى المغرب بمجرد امتناع العاصمة العبدلوادية.[١٢] بعد الفشل الذي لقيه أبو يوسف في الأراضي العبدلوادية، وجه اهتمامه إلى المسألة الأندلسية، بحيث دخل في منافسة مع المسيحيين على مضيق جبل طارق، واصطبغت هذه المنافسة بصبغة الجهاد، والدفاع عن القضية الإسلامية. ولقد فشلت سياسة أبي يوسف الأندلسية بسبب موقف الحاكم الغرناطي المتقلب والمتخوف من أطماع السلطان المريني[١٣]؛ ولكنها فشلت بصفة خاصة، بسبب العداوة العبدلوادية التي كان حكام تلمسان يهدفون من ورائها إبعاد المرينيين عن مياه الزقاق.[١٤]

مع وصول السلطان أبي يعقوب يوسف إلى السلطة في بداية سنة (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) عرفت السياسة المرينية تغيرات جذرية، تجلت في التخلي عن الأندلس، وإعطاء الأولوية للمسائل المغاربية. وهناك مجموعة من المؤشرات الدالة على أن المسألة الأندلسية لم

تعد تحظى عنده بنفس الأهمية التي أضحت تكتسيها المسألة المغاربية لديه.[١٥] فعلى الرغم من الصراع الحفصي الزياني عقب بداية انحلال الخلافة الحفصية بعد وفاة المستنصر (١٢٧٧م)، وانشغال الزيانيين بالجانب الغربي من افريقية، فإن حكام تلمسان لم يتخلوا عن إيقاد الكثير من الفتن في وجه السلطان أبي يعقوب، وإيوائهم للمعارضين من أفراد البيت المريني. إذ نجد أن جميع الثورات التي قامت في وجه أبي يعقوب قد وجدت تأييدا لها في تلمسان. فلا غرابة أن وجدنا الثائرين، الذين تحركوا إما في أقصى الشمال، أو في الجنوب الشرقي من المغرب الأقصى، يلتجئون إلى تلمسان بعد فشل محاولاتهم (أولاد بن ادريس، الأمير عمر بن عثمان، الأمير أبو عامر، محمد بن عطو...).[١٦]

وأمام رفض عثمان بن يغمراسن تسليم ابن عطو الثائر، اندلعت الحرب بين المرينيين والزيانيين. ونشير إلى أنه إذا كان السلطان الزياني قد أبقى على رفضه التام لطلب السلطان المريني بتسليم الثائر، فإن موقفه كانت له مبررات موضوعية. إنه كان يدرك بدون شك الخطر الذي يمكن أن يشكله المرينيون، إن هم تحرروا من القيود التي كانت تحد من تحركاتهم بسبب هذه الفتن الداخلية؛ خصوصا وأنهم كانوا، في هذه الفترة، قد تحرروا من شباك المشاكل الإيبيرية. فالحاكم العبدلوادي كان يساند أي ثورة من شأنها أن تؤذي بني مرين، أو تشغلهم عن المغرب الأوسط.

كانت حملة أبي يعقوب الأولى هذه ضد عاصمة العبدلواديين جد قصيرة (١٥ يومًا من رمضان ٦٨٩ هـ/ بداية شهر سبتمبر ١٢٩٠م) ولم تسفر عن نتائج حاسمة، ما عدا "نسف الآثار، وتخريب القرى، وتحطيم الزروع".[١٧] ولما امتنعت عليه، رفع حصاره عنها وانكفأ راجعًا إلى المغرب بسرعة، خصوصًا وأن ابتعاده عن عاصمته في بداية حكمه كان من شأنه أن يثير تمردات أفراد عائلته، وقبائل المغرب التي كانت تمر بفترة عصيبة بسبب المجاعة التي كانت تجتاح البلاد خلال سنوات (٦٨٧ - ٦٩٠ هـ/ ١٢٨٨-١٢٩١م).[١٨]

ثم إن الأوضاع في الأندلس كانت تتطور لغير صالح المغرب؛ إذ إن تكتلا يضم كلاً من أرغون وقشتالة وغرناطة قد رأى النور سنة ١٢٩١م، وكان هدفه انتزاع ثغر طريف من يد المرينيين وتسليمه إلى حاكم غرناطة. وهي السنة نفسها التي تم فيها عقد اتفاق بين جاك الثاني الأرغوني وسانشو الرابع القشتالي، عرف باتفاق مونتياغدو *Monteagodo* الذي يقسم المغرب الكبير سرًا إلى منطقتيْ نفوذ: الأولى لقشتالة، وتضم الأراضي المحصورة بين الأطلسي وملوية، والثانية أرغونية، وتغطي باقي المناطق المغاربية[١٩]. وأخيرًا فإن محمد الثاني، سلطان غرناطة، استطاع استقطاب عثمان بن يغمراسن ليضمه إلى حلفهم بهدف استرجاع ميناء طريفة من يد المرينيين.[٢٠]

نتيجة هذا التحالف، سقط ثغر طريف في شوال (٦٩١ هـ/ أكتوبر ١٢٩٢)، لكن ليس بيد ابن الأحمر، كما كان مقررًا، وإنما بيد قشتالة[٢١]. واستتبع ذلك محاولة صلح بين بني الأحمر والمرينيين لاسترجاع هذه المدينة[٢٢]. وساعد أبو يوسف النصريين من بعيد لاسترجاع ذلك الثغر بإرسال عدد من العساكر بقيادة عمر بن السعود خرباش الجشمي الذي نازل طريف سنة ٦٩٢هـ[٢٣]. وما أن امتنعت عليه حتى أفرج عنها؛ وأمام عدم جدوى النصريين، فضل السلطان الانسحاب كليًا من الصراع، وذلك بالتخلي عن مجموع باقي الممتلكات المرينية في الأندلس (694 هـ/ ١٢٩٥)[٢٤].

يدخل هذا القرار في برنامج استراتيجي لأبي يعقوب، يعطي الأولوية للأمور ذات الأسبقية، ويأخذ بعين الاعتبار جميع العوامل المحددة لعملة السياسي، وكذلك إمكانياته المادية لتنفيذ هذا العمل[٢٥]. فبدون أسطول حربي قوي، وبدون حلفاء أقوياء وثقاة، فإن كل وجود مريني في الأندلس مآله الفشل، ويمكن أن يكون له نتائج وخيمة على الحالة السياسية بالداخل، خصوصًا وأن الزيانيين كانوا شوكة في شرق المملكة، يرتمون في أي تكتل ضد المرينيين لإبعادهم عن مياه الزقاق. فأبو يوسف يعقوب كان يرى أن الخطر كله آت من جهة الشرق[٢٦]، بينما كان المسيحيون في نظره يشكلون خطرًا أقلّ، ما داموا منشغلين في حروبهم مع الغرناطيين. وقد زاد يقين السلطان المريني من خطر جيرانه الشرقيين بعد ثورة بني وطاس . المنافسين للبيت المريني الحاكم . سنة (٦٩١هـ/ ١٢٩٢)، في منطقة تازوطة بالريف بقيادة بني الوزير، وفرارهم إلى تلمسان بعد إخماد ثورتهم (٦٩٢/ ١٢٩٣م).[٢٧]

ثانيًا: الحصار "التاريخي" لتلمسان

استمر حصار تلمسان لسنة ٦٩٦هـ ما يقرب من ستة أشهر. وأمام صمود المدينة، أمر السلطان برفع الحصار في بداية سنة (٦٩٧ هـ/١٢٩٧م)، مع إعطاء الأوامر لأخيه أبي يحيى بتسيير حملات فجائية ضد الأراضي العبدلوادية؛ وهي حملات كانت ترمي إلى تخريب "أعمال ابن يغمراسن وإفساد سابلتها"[٢٨]، وإخضاع القبائل التي كانت تدين بالطاعة لعثمان بن يغمراسن الزياني، وكانت تهدف بالأساس تخويف القوافل التجارية، والإضرار بالحركة التجارية بصفة عامة. وقد أعطت الخطة أكلها سريعًا، إذ بدأت القبائل الواقعة بين ندرومة وتوات تتوافد على فاس سنة ١٢٩٩ تقدم بيعتها للمرينيين، مع التماس "الحركة إلى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوهم ابن يغمراسن"، ومن عدائه وجوره لهم.[٢٩]

هذا الانتصار الذي حققه أبو يعقوب شجعه على القيام بحصاره "التاريخي" لتلمسان، الذي بدأ في الثاني من شعبان (٦٩٨ هـ/ ٥ مايو ١٢٩٩). ولتقوية الأثر النفسي للحصار، قرر السلطان عزل المحَاصرين عزلاً تامًا[٣٠]، كما استعملت الحرب الاقتصادية ضدهم، وذلك ببناء مدينة "المنصورة" وجعلها محطة للقوافل التجارية، حتى أن ابن خلدون يصف هذه المدينة التي اتّسع عمرانها وقويت مكانتها الاقتصادية بقوله: "اتسعت خطة مدينة المنصورة... ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق، واستبحرت في العمران بمالم تبلغه مدينة"[٣١]، كما عمّد السلطان المريني إلى السيطرة على

منافذ تجارة تلمسان الواقعة على الساحل، مثل وهران وشريش والجزائر، وإحكام المراقبة على مزونة ومستغانم ومليانة.[٣٢]

في الوقت الذي كان أبو يعقوب يسعى فيه لتثبيت سيطرته، كانت القوى الإيبيرية تعمل على إنهاء خصوماتها، وتنقية أجوائها الداخلية. حقيقة أن المصالحات والتوجهات الجديدة للقوى الإيبيرية قد حدّدتها عوامل داخلية. ومع ذلك لم تكن قشتالة ولا غرناطة لتقبل بوجود هيمنة مرينية على المغرب الكبير، بسبب المضاعفات التي ستترتب عن هته الهيمنة على القوى بغرب حوض البحر المتوسط، سواء على المستوى الجيو سياسي، أو على المستوى الاقتصادي.[٣٣] لهذا نجد أن السلطان النصري يتحالف مع قشتالة (٧٠٢ هـ/ ١٣٠٣م)، الأمر الذي أدخل خللاً على مخططات أبي يعقوب، خصوصًا وأن ملك قشتالة كان معروفًا بأطماعه المغربية، ونجح في التحالف مع ملك أرغون سنة ١٣٠٤ هـ، الذي كان، من جانبه، يحاول السيطرة على مياه الزقاق.[٣٤]

هذه المستجدات في السياسة المتوسطيّة سيكون من نتائجها المباشرة إعلان سبتة استقلالها (٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م)، تم احتلال النصريين لها سنة ١٣٠٦م، وتسليمها لشيخ غزاة مالقة، عثمان بن أبي العلا، للمطالبة بعرش المغرب. وسرعان ما اعترفت به منطقة الريف، وبسط سيطرته على أصيلا، والعرائش، والقصر الكبير، ونواحي تازة، بينما سيهاجم الأسطول النّصري بعض نقط الساحل المغاربي، وخصوصًا هنين.[٣٥]

من مختلف هذه المعطيات التاريخية يتّضح أن الأمر كان يتعلّق أساسًا بمنع المرينيين من بسط هيمنتهم على الساحل، سواء في المغرب الأوسط، أو في المغرب الأقصى نفسه[٣٦]. ولم يكن أمام السلطان المريني سوى الانتهاء بسرعة من حصار تلمسان لاسترجاع سبتة، وإنقاذ سلطته في المغرب، ودفع الأطماع الغرناطية القشتالية.[٣٧] لكن الحصار انتهى باغتيال السلطان المريني، في ذي القعدة (706هـ/ أبريل ١٣٠٧م)، على إثر "ملابسات غامضة، كان الحريم مسرحًا لها"[٣٨]، أو "بسبب مؤامرة دبّرها خصيان القصر السلطاني"[٣٩] انتقامًا لضياع مكانتهم داخل البلاط المريني[٤٠]، أو نجد من يربط ذلك الاغتيال بتصفية أخِلاء السلطان من بني وقّاصة اليهود في شعبان (٧٠١ هـ/١٣٠٢م). أما الأسباب الحقيقية لعملية الاغتيال فغالبًا ما أبقِيَت في الظل[٤١]. لكن ما يلفت الانتباه في حصار تلمسان التاريخي هي المدة غير العادية التي استغرقها[٤٢]. فحصار تلمسان الذي لا نجد له مثيلاً في تاريخ المغرب، كان قد أصبح طويلاً جدًا عند نهاية (٧٠٥ هـ/ ١٣٠٦م). فيما بعد، سيتم الكلام عن حصار دام مائة شهر، أو ألف شهر، لإصباغ طابع فريد على هذا الحدث.

ويذهب بعض المؤرخين[٤٣] إلى أن المدة الطويلة التي استغرقها الحصار كانت راجعة إلى خيانة بعض الشخصيات المرموقة في البلاط. فقد كانت هناك تجارة منظمة ولكن سريّة، تقوم بها شبكة التهريب، كانت تعمل خصوصًا بالليل، وكانت لها علاقات مع بعض "رجال البطانة"، وبالتالي كانت محميّة من طرف سلطات عليا داخل الحاشية السلطانية وداخل البلاط المريني. ولا يستبعد أن يكون لاكتشاف هذه العملية عواقب تجلت في تنحية بعض الشخصيات المستفيدة من العملية. فابن خلدون يوضح كيف "استراب السلطان بكثير من حاشيته الملابسين لداره" عند أخريات أيامه. ولا يستبعد أن يكون هؤلاء المستفيدون هم الذين استبقوا الأحداث في شهر ذي القعدة (٧٠٦ هـ/ مايو ١٣٠٧م) باستعمال أحد الخصيان لاغتيال السلطان، والتخلي عن حصار تلمسان. والثابت هو أن حصار تلمسان لم يصبح واقعيًا إلا عند السنة الأخيرة من الحصار، حيث ظهر أثره على المحاصَرين الذين كانوا، عند نهاية سنة (٧٠٦ هـ/ ١٣٠٧م)، على حافة ذبح نسائهم، بطلب منهن، لتجنب الشروط المهينة للهزيمة.[٤٤]

وكيف ما كان الأمر، فإن اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب كان حادثًا مدبّرًا ومخطّطًا له، ولم يكن أبدًا مجرد حادث عرضي. بعد اغتيال السلطان أبي يعقوب، انفجرت السياسة المرينية وأفصحت جليًا عن عوامل اغتيال هذا السلطان. ذلك أن بني مرين انقسموا بين مساندي السياسة المغاربية لهذا السلطان، وبين الداعين للصلح مع تلمسان. وحسب الرواية القريبة من الأحداث (رحلة التجاني) أُعدِم أبو سالم بن يعقوب "بعد أيام يسيرة" من اغتيال السلطان، كما أُعدم أبو يحيى، أخ السلطان، وقد كانا يساندان بقوة سياسة متابعة الحصار. "وانتقل أبو ثابت إلى مدينة فاس بعد أن سلم مدينة تلمسان الجديدة لأبي زيان محمد بن عثمان"[٤٥]، كأن الأمر يتعلق بتركة ثقيلة كان يجب التخلص منها بسرعة.

واستطاع أبو ثابت عامر (٧٠٦ هـ- ٧٠٨هـ)، وهو حفيد السلطان المغتال، الوصول إلى الحكم بمساعدة شيوخ بني مرين[٤٦] ودعم زناتي. وتنازل المرينيون عن جميع ممتلكاتهم في المغرب الأوسط، بما في ذلك مدينة المنصورة. أما ما يذهب إليه ابن أبي زرع من كون الصلح اشترط أن تبقى المدينة في قبضة المرينيين[٤٧]، فإنه لا يدخل في منطق الأشياء، لأن الزعيمين قد أبرما اتفاقية في نهاية سنة (٧٠٦ هـ/ ١٣٠٧م)، وأن هذه الاتفاقية قد جددت في أقل من سنتين. كما إن احتلال المنصورة، ولو شكليا من طرف المرينيين، لم يكن من شأنه أن يشجع هذا الانفراج في العلاقات الزيانية المرينية.

والواقع إن وجود السلالة المرينية نفسها كان مهددًا عقب وفاة أبي يعقوب. فأبو ثابت كان ما يزال شابًا، وواجه أول أزمة عميقة متعلقة بالنزاع على العرش. فقد استقل ابن عمه يوسف بن محمد بن أبي عياد، بمراكش في جمادى الأولى (٧٠٧ هـ/ نوفمبر ١٣٠٧م). ثم إن الوضعية في المغرب كانت متأزمة بسبب تمردات القبائل شمال وجنوب ووسط البلاد.[٤٨] ومن هذه الزاوية، كان قرار التفاوض مع تلمسان إجباريًا وضروريًا بقوة الأشياء. فقد كان من الصعب الاستمرار في تطبيق سياسة أبي يعقوب العدائية ضد بني عبد الواد والبلاد تتخبط في مشاكلها الداخلية. ونجح أبو ثابت في

إبرام اتفاقية صداقة مع أبو حمو الزياني في شوال من سنة (٧٠٧ هـ/ أبريل ١٣٠٨م).[٤٩]

والواقع أن المغرب المريني كان قد دخل "فترة ضعف ملحوظ" أرغمته إلى غاية سنة (٧٣١هـ/١٣٣١م)، على الاهتمام بشؤونه الداخلية، فقد اشتغل كل من أبي ثابت عامر وأبي الربيع سليمان من بعده (٧٠٨ هـ - ٧١٠ هـ) بقضية سبتة، إلى أن استُرجعت في (١٠ صفر ٧٠٩ هـ/ ٢١ يوليوز ١٣٠٩م).[٥٠]

توفي السلطان أبو الربيع في (٢٩ جمادى الثانية ٧١٠ هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٣١٠م)، وخلفه أبو سعيد عثمان (٧١٠ - ٧٣١ هـ) الذي تعتبر مرحلة حكمه من أهم مراحل التاريخ المريني، وأكثرها دلالة. ففي هذه المرحلة وخاصةً بين سنة (٧١٤ - ٧٢٥ هـ/ ١٣١٤ - ١٣٢٥م) دخلت إفريقية مرحلة انهيار، بينما نلاحظ تقوية الجانب التلمساني، وتوطيد بطيء للسلطة المرينية. وطوال مرحلة التقوقع المريني، حاولت مملكة تلمسان -التي أصبحت أكثر ازدهارًا على المستوى التجاري من باقي أجزاء المغرب[٥١]- التوسع على حساب الممتلكات الحفصية، ونجحت في الاستيلاء على عاصمة الحفصيين مرتين (١٣٢٥ و ١٣٢٩). ولم يكن أمام الحفصيين سوى الاستنجاد بالمرينيين. وابتداءً من سنة (٧٣٠ هـ/ ١٣٣١م)، توجه أبو سعيد نحو تلمسان مرغمًا الزيانيين على التخلي عن سياستهم التوسعية على حساب إفريقية. بموازاة ذلك، ارتبط عائليًا بالأسرة الحفصية عبر زواج ابنه وولي عهده، أبي الحسن، بإحدى بنات أبي يحيى الحفصي،[٥٢] وهو ارتباط مماثل لذلك الذي كان قد عقده أبو يعقوب مع زعيم مغراوة سنة (٦٩٦ هـ/ ١٢٩٧م).

ولقد حاصر السلطان أبو سعيد تلمسان سنة ٧١٤ هـ، ولم تكن محاولته ناجحة، إذ اقتصر على تخريب العمران ونهب وتحطيم الزرع.[٥٣] وانصبت جهود السلطان بعد ذلك على حل مشاكله الداخلية، كثورة ابنه أبي علي عمر، وانتفاضة بني العزفي بسبتة[٥٤]. وانتهى الأمر إلى الإحجام عن الدخول في صراع مع منافسه الزياني. وهذه السياسة الوفاقية مع الجار الشرقي سمحت بظهور ذلك الثراء في المغرب على عهد السلطان أبي سعيد عثمان. كما أن التوازن المريني الزياني، هو الذي يفسر الطابع السلمي لمرحلة حكم أبي سعيد[٥٥]، والذي تشير إليه كل المصادر، وهيأ ظروفًا مواتية لأبي الحسن لبسط نفوذه شرقًا.

ثالثا: تجربة أبي الحسن المريني الوحدوية وفشلها

من المعلوم أن وصول السلطان أبي الحسن إلى الحكم قد احتفل به في نفس الوقت الذي تزوج فيه بالأميرة التونسية، فاطمة بنت أبي يحيى الحفصي[٥٦]، وأنه في السنة التالية أتى محمد الرابع، سلطان غرناطة، بنفسه إلى المغرب ليطلب من أبي الحسن التدخل في الأندلس[٥٧] مما يؤكد الوضعية الحرجة بالنسبة للأندلس وللحفصيين. هذه الظرفية تتمثل في تقدم قشتالة نحو مياه الزقاق، وتدخل الزيانيين في موانىء بجاية وتونس. لذلك، فرغم مراقبتهم المتحسنة لعنق التجارة الصحراوية، فإن المرينيين كانوا يرون أنفسهم، على المدى البعيد، مبعدين عن بلاد الساحل. وإذا كانت هناك طريقة للتحكم في التجارة المغاربية، فإنها، في نظر السلطان أبي الحسن، لم تكن لتجرب عند المنبع، أي في بلاد توات أو درعة، وإنما عند المنافذ الساحلية المتوسطية.[٥٨]

لهذه الأسباب كلها، سيغدو الصراع مع الزناتيين محتمًا على المستوى الاقتصادي، بعبارات أخرى، سوف يجد أبو الحسن نفسه -كأبي يعقوب ولو بدرجة قل- يهتم بالساحل الإفريقي[٥٩]. والواقع أنه منذ شعبان (٧٣٢ هـ/ مايو ١٣٣٢م) أصبحت سواحل الإمارة التلمسانية تحت رحمته، بفضل أسطوله البحري الذي كان أقوى قوة بحرية في شمال إفريقيا آنئذ[٦٠]؛ وبعد ذلك، سيتخذ من الهجمات المتكررة لأبي تاشفين على مجال الحفصيين ذريعة ليطالب بإعادة ميناء دليس للتونسيين. وأمام رفض السلطان الزياني، سيحتل أبو الحسن ندرومة أواخر ٧٣٥ هـ، ووجدة في بداية (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)، وأقام حصارًا على تلمسان، وبسط سيطرته على الساحل في السنة نفسها، من هنين حتى الجزائر، مجددًا بذلك تجربة أبي يعقوب.

نجح أبو الحسن في السيطرة على عاصمة الزيانيين في (٢٧ رمضان ٧٣٧ هـ/ أبريل ١٣٣٧م) بعد سنتين من الحصار، انطلاقًا من مدينة المنصورة المجدد بناؤها. وبعد توقيف أميرها، أُعدِم بسرعة، ولم يعد هناك معارضة تلمسانية البتة. وأدى هذا الحادث إلى انقطاع الدولة الزيانية، إلى أن تم بعثها سنة ٧٤٩ هـ على يد الأخوين أبي سعيد عثمان الثاني وأبي ثابت.

أصبحت الطريق مفتوحة بعدئذ نحو تونس. وحسب ملاحظة هامة أوردها العمري، وربما تعكس الرأي العام الذي ساد هذه الفترة، أي عقب فتح تلمسان، لم يكن الحفصيون متحمسين كثيرًا لانتصارات أبي الحسن، واقترابه من دولتهم: "كان صاحب افريقية مع انقياده إلى المريني، وعداوته لسلطان بني عبد الواد، وقيام المريني على عدوه في هواه، لا يؤثر في الباطن أن المريني يظفر بصاحب تلمسان عدوه ليكون له به شغل عن قصده، وانتزاع افريقية منه"، ويضيف العمري بخصوص أبي يحيى هذا أنه كان يعلم "أن تلمسان حجاب بينهما، وإنه لا طاقة له بالمريني ولا قبل له به، ويحق له الخوف فإنه في قبضته متى أراد"[٦١].

وبذلك أصبح السلطان المريني يعتبر منذ استيلائه على تلمسان، سلطانًا على المغرب الكبير، تمتد مملكته من البحر المحيط إلى برقة، "وإفريقية هي داخلة في هذا الحد"، حسب ملاحظة العمري[٦٢] ذلك أن الفتح شمل عمليًا جميع المنطقة حتى تونس، بفعل سقوط تلمسان وحدها، مع السيطرة على بلاد الساحل الوسطى. وعندما توفي أبو يحيى في رجب (٧٤٧ هـ/ أكتوبر ١٣٤٦م) أصبح التدخل المريني العسكري تدخلا صوريا، ومن أجل الأبهة فقط. والأمر الذي سهل، مع ذلك، هذا التدخل العسكري هو ذلك التفتت الحفصي، وضرورة الانتقام لأبي العباس الذي ذهب ضحية أخيه أبي حفص. وتحت ذريعة إعادة الأوضاع إلى نصابها بتونس،

نظم أبو الحسن حملة في بداية (٧٤٨ هـ/١٣٤٧م)، انطلاقًا من تلمسان، وعند الوصول إلى وهران استقبل السلطان من قبل الوفود التي أتت من بعيد، من بلاد الجريد. ومن جهة أخرى، لم تبد لا بجاية ولا قسنطينة، أية مقاومة.

واقترب المرينيون من العاصمة الحفصية، وحاولوا اقتحامها. وحوصرت المدينة برًا وبحرًا، ولم تتأخر في الاستسلام، ونظم استعراض عسكري توج المسيرة الطويلة لأبي الحسن في (٨ جمادى الثانية ٧٤٨ هـ/ ١٥ شتنبر ١٣٤٧م) حتى "صاحت الأرض بالجيوش، وهو يومًا لم ير مثله فيما عقلناه"[٦٣] حسب الشهادة المتأخرة لابن خلدون، الذي عاين هذا الاستعراض المدهش للجيش المريني.

وتُعَدّ التجربة الوحدوية التي رأت النور على عهد هذا السلطان المريني تجربة فريدة من نوعها، بالمقارنة مع سابقاتها، ومختلفة على كل حال، عن تلك التي طبقها الموحدون. فهي تجسد "هيمنة أكثر انفتاحا نحو الانصهار، ليست عسكرية بتاتا، ولا عصبوية ضيقة"[٦٤]. ذلك أن حملة السلطان المريني ضد بلاد الزيانيين وبلاد الحفصيين "لم تكن مجرد حملة عسكرية، وإنما كانت حملة دينية فقهية شارك فيها أشهر علماء المالكية بالمغربين الأوسط والأقصى في الوقت نفسه"[٦٥]، بل نجح السلطان المريني في استقطاب جزء من الرأي العام المغاربي لصالحه، بما في ذلك قسم هام من المتصوفة[٦٦]، قبل أن يبدأ حملته نحو المناطق الشرقية. فكان حدث جلاء المسيحيين عن جبل طارق سنة (٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣م) بعد انتصار أبي الحسن البحري حدثًا مدويًا، "صار خبره في الآفاق، وسارت بهذه البشرى الرفاق".[٦٧]

والحقيقة أنه بالإضافة إلى ارتباط "رجال الدين" بشخص أبي الحسن، فإن السلطان المريني الفاتح كان يهدف -حسب تصريحه- "استجلاب" أهل تلمسان، و"تأنيسهم"[٦٨]، ذلك لأنه كانت بينه وبينهم "رحمى سابقة"[٦٩]، ولكنه كان كذلك يعمل -بوعي تام- على خلق "الوحدة الزناتية" عبر إشراك العبدلواديين في مشروعه المغاربي[٧٠]. ولتحقيق هذا الهدف تم إدماج بعض العناصر الزيانية على مستوى القيادة العسكرية[٧١]، والإدارة العامة للولايات المغربية ذاتها.[٧٢]

ومع ذلك؛ فإن نشوة الانتصار لم تدم طويلاً، وكان فشل الحملة المرينية في إفريقية أكثر ذهولاً من تقدّمها السريع، وسيخسر أبو الحسن في هذه الحملة سمعته وعرشه والساحل المغاربي، حينما تعرض لخيانة أهله، ولهزيمة منكرة على يد عدوه: عرب إفريقية، قرب القيروان سنة (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م). ونجا هذا السلطان، وهو "سيد المنطقة الساحلية"، من الغرق على سواحل الجزائر إثر رجوعه الهروبي عبر البحر "في قلب فصل الشتاء"، في بداية شوال (٧٥٠ هـ/ منتصف دجمبر ١٣٤٩م)، ليموت في شهر ربيع الأول (٧٥٢ هـ/ ١٣٥١م) موتة بؤس وشقاء في جبال الأطلس، عند هنتاتة، متابعًا ومطاردًا من طرف ابنه وخلفه أبي عنان.[٧٣]

جرت العادة على تفسير هزيمة أبي الحسن بعدم تماسك عسكره، وفساد رجال بلاطه، وزوال محبة العناصر الحضرية الإفريقية تجاهه، وإلى "الفوضى الزناتية"، وتمرد العرب الذين مسوا في امتيازاتهم التقليدية، والمحرومين من "الرواتب التقليدية المعتادين على جبايتها من المستقرين"[٧٤]. ومن الباحثين من يعتقدون أن وباء الطاعون -الذي اندلع في بداية (٧٤٩/ أبريل -ماي ١٣٤٨م)، كان قد بلغ ذروته في ربيع الأول من العام نفسه (يونيو ١٣٤٨م) في العاصمة تونس، إن لم يكن في باقي الولايات- قد ساهم في الفتك بجيش السلطان، وعزل السلطان عن باقي أطراف مملكته، وأن تأثيره قد انضاف، على الأقل إلى تأثير الهزيمة العسكرية.[٧٥]

حاول السلطان أبو عنان فارس أن يتم ما بدأه والده، فاستعاد تلمسان سنة (٧٥٦ هـ/ ١٣٥٢م) واستولى على كامل المغرب الأوسط، حتى بلغ بجاية. وبعد أربع سنوات شرع في تحقيق مشروعه الأكبر بالسيطرة على افريقية، فدخل قسنطينة (٧٥٨ هـ/ صيف ١٣٥٧)، وجاءته بيعة كل المناطق الجنوبية، ودخل الجيش المريني تونس (شتنبر ١٣٥٧)، لكن الحملة المرينية سرعان ما انكسرت، بسبب التناقضات الحاصلة على مستوى السلطة العليا المرينية، وخذلان الجيوش، الذي رفضت مواصلة القتال بعيدًا عن أهلها وبلادها[٧٦]، وقفل أبو عنان راجعًا إلى المغرب الأقصى، وحينما استعد مرة ثانية للتوجه إلى إفريقية لم يتجاوز مدينة تلمسان، واضطر مرة أخرى على الرجوع إلى المغرب، وما أن وصل إلى فاس حتى اغتيل خنقا على يد أحد وزرائه أواخر سنة (٧٥٩ هـ/ ١٣٥٩م)، وبموته ستدخل الإمبراطورية المرينية طور الانحلال التدريجي، ويتلاشى الحلم الذي طالما راوده وراود والده السلطان أبا الحسن، والمتمثل في إعادة تجسيد فكرة الإمبراطورية الإسلامية في الغرب الإسلامي، كما حققتها الإمبراطورية الموحدية.

وكما دخل المغرب المريني طور الاحتضار، دخلت الأندلس كذلك في مسار الانحلال والتفكك والهزائم المتتالية أمام هجمات الممالك المسيحية، والذي سيكون من آخر محطاته سقوط غرناطة سنة (٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢م) ونهاية الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، وما خلفته هذه الهزائم من صدى عميق في نفوس المسلمين - نخبا وعامة- في المغرب الإسلامي. ولقد تزامنت هذه السياسة الهجومية للمماليك المسيحية الغربية في شبه الجزيرة الإيبيرية مع ما يجب اعتباره الامتداد الغربي للحروب الصليبية، والمتمثلة في الاعتداءات المتكررة على سواحل وموانئ المغرب الإسلامي، والتي عكست تغيرًا على مستوى سياسة هذه المماليك في البحر الأبيض المتوسط، وعزوفًا عن سياسة التوازن التي كانت تطبع الوضع في تلك المنطقة في بداية القرن الثالث عشر للميلاد.[٧٧]

واضطر المرينيون للتخلي شيئًا فشيئًا عن المسألة الأندلسية، لاستحالة الحرب على الواجهتين، الأندلسية والإفريقية، في آن

واحد. ولئن كانت أنشطة السلطان أبي الحسن المريني البحرية قد توجت بانتصار كبير بمياه جبل طارق، الذي استرده أبو مالك -أحد أبناء السلطان- سنة (٧٣٣ هـ/١٣٣٣م)، وذلك بعد أكثر من عشرين سنة من الاحتلال القشتالي، فإن ذلك الانتصار تبعته انتكاسة كبرى، وقعت يوم سابع جمادى الثانية (٧٤١ هـ/ ٢٨ نوفمبر ١٣٤٠م)، ليس بعيدًا عن طريفة، عند ريو سالادو *Rio de Salado*، أسفرت عن مذبحة للمسلمين، وأسر عدد من الجنود، ومن بينهم أحد أبناء أبي الحسن، ووفاة زوجة السلطان الحفصية التي قتلت مع زوجة أخرى، وهروب السلطان بنفسه نحو سبتة، وميله للتخلي، منذ هذه الفترة، عن الشؤون الأندلسية، أو على الأقل، جعلها ثانوية بالنسبة إليه.

والواقع أنه سيكتفي بمساعدة الأندلسيين من بعيد. فعندما حوصرت الجزيرة الخضراء في بداية سنة (٧٤٣ هـ/ يوليوز ١٣٤٢م) اكتفى أبو الحسن بمساعدة المحاصرين من مدينة سبتة، وإرسال المؤونة لهم بحرًا، بانتظار استسلام المدينة للعدو. ومع السقوط النهائي لهذه المدينة في بداية شوال (٧٤٣ هـ/ مارس ١٣٤٣م) استدعي السكان للمجيء إلى المغرب، الشيء الذي تم بالفعل، وأدى ذلك إلى ارتياح الجميع، بمَنْ فيهم أبي الحسن نفسه.[٧٨] وبسقوط الجزيرة الخضراء فقد المغرب المريني نقطة هامة للعمليات العسكرية ولانتقال الجيوش، وأصبح ألفونسو الحادي عشر سيد مياه الزقاق بدون منازع.

منذ هذه لفترة لا نجد اهتماما كبيرًا بالنقطتين اللتين كانتا ما تزالان تحت الإدارة المرينية، باستثناء استقبال السلطان لوفد من رندة في بداية سنة (٧٤٥ هـ/ ماي ١٣٤٤م)، ومساعدته الخاطفة سنة (٧٤٩ هـ/١٣٥٠م) لفك حصار جبل طارق، وهو حصار لم يرفع إلا بسبب تهديد الوباء المندلع في صفوف القشتاليين، والذي كان من ضحاياه الملك القشتالي نفسه[٧٩]. وما لبث المرينيون أن تنازلوا عن رندة للنصريين سنة ١٣٦١م وفي سنة ١٣٧٤ تنازلوا لهم عن جبل طارق، وبذلك لم يعد هناك وجود مريني في أرض الأندلس. بل أصبح المغرب نفسه، وقد دخل مرحلة الانحلال والضعف، ميدان تدخل ودسائس نصرية لا تنتهي.

خاتمة

وبصفة عامة يمكن القول؛ إن المرينيين كانوا أقرب إلى تحقيق الحلم الوحدوي في المغرب الكبير، إلا إنهم لم يستطيعوا تحقيق ذلك الهدف في شقه الأندلسي. لقد حدت مجموعة من العوامل المعقدة من جدوى التدخل المريني في الأندلس، وعلى رأسها: الانشغال في الحروب مع الجار الزياني، والفتن الداخلية بالمغرب، والصراع على السلطة، والتناقض المريني النصري، وعدم توفر المرينيين على أسطول كبير، واختلال التوازن بين ضفي البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة[٨٠]. ومع ذلك فإننا لا ننفي أن المغرب المريني "استطاع أن يؤخر كارثة الأندلس بنحو قرنين من الزمن، لما بذله من دفاع مجيد عن الفردوس المفقود"[٨١]، لكن انقطع العبور المغربي إلى الأندلس ترك الأندلسيين يواجهون لوحدهم زحف حركة الاسترداد الجارف الذي توج بسقوط غرناطة، عاصمة النصريين، سنة ١٤٩٢م.

الهَوامِشُ:

(1) M. Kably, *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age*, Paris, 1986, p.129

(٢) **المقدمة**، طبعة علي عبد الواحد وافي، القاهرة، ١٩٦٥، ج ١، ص ٤٠٥-٤٠٦؛ وانظر كذلك د. محمد رزوق، "**الرؤية الخلدونية للحضارة الإسلامية**"، أعمال الملتقى الدولي الثاني عن ابن خلدون، المنعقد بفرندة، ١٩٨٦، ط. الجزائر، ١٩٩٢، ص ٤٥- ٥٨.

(٣) العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ط.٢، الدار البيضاء ، ١٩٩٤، ج٢، ص ١٩٣

(٤) بوداود عبيد، **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط**، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٣، ص١٥٦.

(5) Viguera, María Jésus.,*"Le Maghreb mérinide: un processus de transfèrement"*, in La signification du bas Moyen Age dans l'histoire et la culture du monde musulman, *Actes du 8e Congrès de l'Union Européenne des Arabisants et Islamisants*, Edisud, 1978, p. 309

عبد السلام الشدادي، "**المسلمون والبحر الأبيض المتوسط**"، ضمن كتابه: **ابن خلدون من منظور آخر**، ترجمة محمد الهلالي وبشير الفكيكي، دار توبقال، ٢٠٠٠ ٢٠٠٠، ص ٦٣- ٦٨.

(٦) بوداود عبيد، م. س. ص ١٥٧.

(٧) نفسه، ١٥٩.

(٨) محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، الدار البيضاء، ١٩٨٧، ص ٨٢ – ٨٣.

(٩) عبد الله شريط ومحمد الميلي، **الجزائر في مرآة التاريخ**، قسنطينة، ١٩٦٥، ص ١٠٠.

(١٠) الحملات المرينية الأخرى وقعت في عهد أبي يعقوب يوسف سنة، ٦٨٩ هـ/١٢٩٠ وسنة ٦٩٤ هـ /١٢٩٥، وسنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٨، وسنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٩ وفي عهد السلطان أبي سعيد سنة ٧١٤ هـ/١٣١٤ وسنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ وفي عهد السلطان أبي الحسن سنة ٧٣٥ هـ/ ١٣٣٥ وفي عهد السلطان أبي عنان فارس سنة ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢ وفي عهد السلطان أبي سليم سنة ٧٦١ هـ/ ١٣٦٠ وفي عهد السلطان أبي فارس سنة ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ وفي عهد السلطان أبي العباس سنة ٧٨٥ هـ/ ١٣٨٣ وسنة ٧٨٨ هـ/ ١٣٨٧. (**العبر**، ج ٧ **وبغية الرواد**، في مواضع مختلفة من الكتابين)

(١١) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ٢/ ٢٠٥.

M. J. Viguera, « *Le Maghreb mérinide: un processus de transfèrement* », p. 312

(١٢) ابن خلدون، **العبر**، ٢٥٣/٧ – ٢٥٤.

(١٣) يعبر ابن خلدون عن ارتياب السلطان النصري من أبي يوسف المريني بهذه العبارات الدالة: "ارتاب ابن الأحمر بمكانه، فبدا له ما لم يكن يحتسب، وظن بأمير المسلمين الظنون، واعترض ذكره شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد سلطان الأندلس، وأكد ذلك عنده جنوح الرؤساء من بني أشقيلولة وغيرهم إليه، وانقيادهم لأمره، فشرق بمكانه وحذر غوائله، وتكدر الجو بينهما، وأجاز الإجازة الثانية فانقبض ابن الأحمر عن لقائه" (**العبر**، ١٩٨/٧).

(14) Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p. 100

(١٥) فقد قبل السلطان أبو يعقوب بتثبيت اتفاقية السلام المرينية القشتالية المعقودة مع والده سنة ١٢٨٥م، بل ذهب أبعد من ذلك عندما جدد هذه الاتفاقية مرة أخرى سنة ١٢٨٨ لمدة أربع سنوات أخرى. كما عقد اتفاقا مع النصريين في أبريل ١٢٨٦، اعترف لهم بسلطتهم على الأندلس، ولكن في إطار نوع من السيادة المرينية، وتنازل لهم عن جميع ممتلكات المرينيين، باستثناء الجزيرة الخضراء وطريفة ورندة وقادس. ابن أبي زرع الفاسي، علي (ت. حوالي ٧٤١ هـ)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٣، ٣٧٦؛ - ابن خلدون، عبد الرحمان (ت. ٨٠٨ هـ)، **كتاب العبر** ...، دار الكتب العلمية، ج ٦، بيروت، ١٩٩٢، ٢٥١/٧ – ٢٥٢.

Ch. E. Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIVe siècles*, Paris, 1966, p. 216, Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p. 100-101

(١٦) عن هذه الثورات، انظر: محمد عيسى الحريري، **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني**، ط ٢، ١٩٨٧، ص ٨٣ - ٨٤.

(١٧) **القرطاس**،٢٧٩؛ **العبر**، ١١١/٧، ٢٥٩ – ٢٦١.

(١٨) **القرطاس**، ٤٠٨.

(19) Ph. Gourdin, "Le partage du Maghreb entre l'Aragon et la Castille au traité de Monteagudo (1291) », in, *Le partage du monde. Echanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale*, publications de la Sorbonne, Paris, 1998, pp. 399-409 ; Dufourcq, *L'Espagne*, 218-221 ; R. Arié, *L'Espagne musulmane*, p. 77

(٢٠) **القرطاس**، ٣٨٠، ٣٨١.

(٢١) **العبر**، ٧ / ٢٥٥. ٢٥٦؛ **القرطاس** ٣٨٠.

(٢٢) **العبر**، ٧ / ٢٥٦. ٢٥٧.

(٢٣) نفسه، ٧ / ٢٨٢.

(24) Arié, Rachel, L'Espagne musulmane au temps des Nasrides, (1232- 1492), Paris, 1973 . p. 78-79

(25) Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p.103

(26) Ibid, p.104

(٢٧) **العبر**، ٧ / ٢٥٧، ٢٥٨.

(٢٨) **العبر**، ٧/ ٢٦١.

(٢٩) **العبر**، ٧/ ٢٦١؛ **القرطاس**، ٣٨٧.

(٣٠) انظر شهادة معبرة عن ذلك في : **المناقب المرزوقية**، تحقيق ودراسة دة, سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف، الرباط، ٢٠٠٨، ص ٧١.

(٣١) **العبر**، ٧، ص ١١٤.

(٣٢) خرجت جيوش بني مرين للاستيلاء على مدن وأقاليم دولة بني عبد الواد، فاستولت على "ندرومة وهنين ووهران وتاونات ومزغران ومستغانم وتنس وشرشال وبوشك والبطحاء ومازونة وونشريش وملیانة والقصبات والمدية وتازجدت وجميع بلاد بني عبد الوادي وبلاد تجين وبلاد مغراوة" (**العبر**، ٧، ص٢٦١).

(33) Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p. 113

(34) Dufourcq, *L'Espagne*, op. cit. 362, 363.

(٣٥) **العبر**، ٧، ص ٢٧١.٢٧٠ ؛ **القرطاس**، ٣٨٧؛ ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط٢. القاهرة، ١٩٧٣، ٤، ص ٢٤١ .٢٤٣

(36) Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p.114

(37) Ibid

(٣٨) جوليان، شارل أندري، **تاريخ إفريقيا الشمالية تونس الجزائر المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٣٠ م**، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر ١٩٦٩، ٢/ ٢٢٦؛ الحريري، د. محمد عيسى، **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المَرينيّ**، ط١، الكويت، ١٩٨٥، ص ٩١

(٣٩) إبراهيم حركات، **تاريخ المغرب**، ١/ ٣٢- ٣٣

(٤٠) محمد عيسى الحريري، **تاريخ المغرب الإسلامي**، ص ٩٢

(٤١) محمد ياسر الهلالي، "اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب المريني: قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصورة"، ضمن كتاب: **التاريخ والفقه**.

أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني، تنسيق محمد حجي، منشورات كلية الآداب الرباط، ٢٠٠٢، ص ٢٢٩-٢٥٩

(42) Ibid.

ومن المعلوم أن أي حصار لم يكن يتجاوز أبدا مدة سنتين في العالم الأوربي من حوض للبحر المتوسط الغربي،

Philipe contamine, *La guerre au Moyen Age*, Paris, 1980, p. 207-8 cité par Kably, *Société*, op. cit. p. 115

(43) Ibid, 114-115 ; Dufourcq, *L'Espagne catalane*...op. cit. p. 384

(٤٤) ابن خلدون، **العبر**/ ٧، ص ١١٤.١١٥؛

- Kably, *Société*...op. cit. p. 116

(٤٥) عبد الله التجاني، **رحلة التجاني**، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٨١، ص ١٩٧-١٩٨

(٤٦) ابن خلدون، **العبر**، ٧/ ٢٧٦

(٤٧) **القرطاس**، ٣٩٠

(٤٨) ابن خلدون، **العبر**،٧/ ٢٧٧؛ **الإحاطة**، ١/ ٥٥٠

(٤٩) ابن خلدون، **العبر**، ٧/٢٧٧

(٥٠) ابن خلدون، **العبر**، ٧/ ٢٨٤

(51) Dufourcq, *L'Espagne catalane*... op. cit. p. ٤٧١-٤٧٣

(٥٢) ابن خلدون، **العبر**، ٧/ ٢٩٧-٢٩٩

(٥٣) **القرطاس**، ٣٩٩؛ **العبر**، ٧/ ٢٨٧-٢٨٨

(٥٤) ابن خلدون، **العبر**، ٧/ ٢٩٢.

(55) Kably, *Société*...op. cit, p.126

(٥٦) ابن خلدون، **العبر**، ٧/٥٢٥ – ٥٢٦.

(٥٧) نفسه، ٥٣١.

(58) Kably, *Société*...op. cit, p.129

(59) Ibid, p. 131

(٦٠) المقري، أحمد بن التلمساني ت (١٠٤٠ هـ)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٨، ٦/ ٢١٦؛ المنوني، محمد، **ورقات عن حضارة المَرينِيّين**، منشورات كلية الآداب الرباط، ط٢، ١٩٩٨، ٧٧، لقد اعتبر السلطان أبو الحسن المهندس الحقيقي لتطور القوى البحرية بالمغرب والمؤسس الدؤوب للأسطول، إذ شجع إنشاء الأساطيل في دور الإنشاء المغربية حتى إنه "لا تمر سنة إلا وله فيها تجهيز أسطول وتجهيز غزاة"، حسب ابن مرزوق (**المسند**، ٣٨٨، وكذلك ص ٣٩٣)

(٦١) العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق د مصطفى أبو ضيف أحمد، ١٩٨٨، ص ١٢٢

(٦٢) نفسه، ص ١٢٣

(٦٣) ابن خلدون، **العبر**، ٧/ ٣٢٠

(64) Kably, op. cit, 137

(٦٥) محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، الدار البيضاء، ١٩٨٧ص ٦١

(٦٦) ابن مرزوق التلمساني، محمد (ت. ٧٨١ هـ)، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق دة. ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، ١٥٢،٢٦٥-١٩٨١-٢٦٨، ١٦٣ إلا أن قسما آخر من المتصوفة كان معارضا للسياسة التوسعية نحو الشرق، مثل الشيخ بوهادي، الوالي بتونس الذي طلب من أبي الحسن المريني الرحيل عن إفريقية، فلم يسعفه، مما حدا بهذا المتصوف إلى الرحيل عنه إلى قسنطينة حيث اختلى بنفسه... وقيل إنه لازم خلوته من أجل التوجه إلى الله تعالى في السلطان المذكور (**أنس الفقير**، ص ٥١).

ولعل مثل هذه المواقف المعارضة هي التي جعلت بعض الباحثين يعممون ويرون "بشيء من الاستغراب أن متصوفة المغرب عارضوا المحاولات التوسعية لملوكه، لا سيما في العهد المريني". انظر مثلا: محمد فتحة، " **المؤسسة السلطانية والمجال: أمثلة من العصر الوسيط**"، مجلة البحث التاريخي، العدد ٢، ٢٠٠٤، ص ١٩

(٦٧) ترك لنا ابن مرزوق وصفا دقيقا لهذه الظاهرة إذ يقول: " كنت يوما في مجلس الإمام العلامة القدوة أبي زيد ابن الإمام بتلمسان، والمجلس بالمسجد الذي كان يقرأ فيه من مدرسته، قد غص بمن عوائده الحضور، ونحن ننتظره، وإذا به قد جاء على عادته، رضي الله عنه، فلما استوى جالسا، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: " أبشروا معشر المسلمين، هذا جبل الفتح قد أعاده الله للمسلمين وجبر صدعهم وعاد الفتح الأول كيف كان". فارتفعت الأصوات بالحمد والشكر وجرت العبارات، عبرات السرور. ثم قال للشيخ الفقيه الصالح العالم الولي المجاب أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي، وكان من أولياء الله الصادقين... " يا فقيه أبا محمد، ادع الله لنؤمن على دعائك لمن فتحه الله على يديه"، فارتفعت الأصوات بالدعاء، وانطلقت الألسنة بالثناء". **المسند**، ٣٩٠-٣٩١

(٦٨) **المسند**، ٣١٤

(٦٩) نفسه، ٢٠٢

(٧٠) القبلي، ١٣٦؛ ابن خلدون، أبو زكرياء يحيى، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ج١، تحقيق د. عبد الحميد حاجيات، الجزائر، ١٩٨٠؛ ج ٢، نشره ألفريد بل، مطبعة فونطانة، الجزائر، ١٩١٠، ٢٣٤ لما استولى أبو الحسن على تلمسان "استخدم قبيل بني عبد الواد، فلم شعثهم، وحفظ عليهم رتبتهم، وأبقى لشعوبهم وقبائلهم المراسم التي ألفوها بأيامهم، **تفاخرا بملك القبيلتين وتشرفا بإمرة زناتة أجمعين**"

(٧١) تم إدماج أميرين تلمسانيين وهما: أبو سعيد والأمير أبو ثابت، حفيدي يغمراسن (**بغية الرواد**، ٢٣٤ -٢٣٥)

(٧٢) نجد أن بعض الولاة الزيانيين عُينوا على رأس ولايات صعبة الحكم بالمغرب الأقصى، مثل السوس وغمارة، كما نجد أن بعض الزناتيين غير المرينيين أصبحوا من بين حاشية السلطان أبي الحسن. (**المسند**، ١٨٤)

(٧٣) العرض المفصل حول هذه الحملة هو الذي نجده في **العبر** ٧/٥٧٥-٥٩٨، وينقله الناصري في **الاستقصا**، ٣/ ١٦٢-١٧٤

(٧٤) برنشفيك، روبار، **تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م**، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٨٨، **تاريخ إفريقية الحفصية**، م. س. ١/ ١٩٨-١٩٩؛ شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقية الشمالية**، ٢/ ٢٣٢

(75) Kably, *Société*...op. cit. p. 142-144

(٧٦) برونشفيك، **تاريخ إفريقية الحفصية**، ١/٢٠٧-٢٠٩

(٧٧) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ٢/ ١٩٣؛ - العامري، دة. نللي سلامة، **الولاية والمجتمع**:مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي، تونس، ٢٠٠١، ص ٥٧-٥٨

(78)١٣٠ - Kably, *Société*, op. cit,

(79) Idem.

(80) M. J. Viguera, « *Le Maghreb mérinide*... », op. cit. p. 310-311

(٨١) المنوني، **ورقات**،م. س. ١٩